علماء السلطة

توطئة حول مصطلح علماء السلطة:

هو مصطلح جديد صار متداولاً حديثاً وفي تراثنا الإسلامي تعبير أشمل منه وهو علماء السوء، يقول أحدهم:

يا علماءَ السُّوءِ يا مِلحَ البلدْ　　ما يُصلِحُ المِلحَ إذا المِلحُ

ومعناه: العلماء الذين لم يلتزموا بمقتضى علومهم التي انتهلوها وشردوا عن الانضباط باختصاصاتهم العلمية فاتخذوا العلم تُكأةً للدنيا أو أداةً للكسب والمغانم ونحو ذلك، بقطع النظر عن الصلة بالسلطان أو الحاكم.

أما تعبير علماء السلطة فهو أضيق، ويُقصد به العلماء الذين أخضعوا علومهم لخدمة السلطان أو ولي الأمر، ووضعوا نُصب أعينهم مغانم، مراكز، مبتغيات سياسية، ونحو ذلك وعزّ عليهم أن يجدوا سبيلاً للوصول إلى هذه الأهداف إلا سبيل العلم، فاتخذوا من علومهم لدى السلطة وسيلة للوصول إلى مغانم والسبيل إلى ذلك أن يوافقوا ولي الأمر فيما يرون أنه ينشرح صدره له.

أي إذا رأى أحدهم أن ولي الأمر يرى أن الشيء الفلاني ينبغي أن يكون مباحاً أفتى أنه مباح، وإذا رأى أن أمراً يضيق صدر ولي الأمر به ويرى أن هذا ينبغي ألا يكون، يجدون فتوى يفتونه بها توافق مقتضاه، ولو كان ذلك الأمر مباحاً في أصول الشريعة الإسلامية.

هذه الحالة التي يتصف بها فعلاً بعض العلماء هو ما يعبَّر عنه اليوم بـ (علماء السلطة).

كيف ينبغي أن تكون علاقة علماء الدين بولي الأمر:

عا لم الدين يجب أن تتصف علاقته بولي الأمر بالأمور التالية:

طاعة ولي الأمر في غير معصية، وهذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام للناس جميعاً، فعليهم جميعاً طاعة ولي الأمر في غير معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولكن المعصية التي لا نستجيب لولي الأمر فيها هي المعصية التي يعود وزرها على المأمور، أما المعصية التي يعود وزرها على الآمر، وتنفيذُ المأمور لهذه المعصية لا يُلحِق به شيئاً يجب أن يطيعه فيها.

مثلاً: طلب ولي الأمر ماله، أو أن يأخذ قطعة أرض منه بدون حق، عليه أن يطيعه، فهذا الأمر فيه معصية لكن تنفيذه يعود بالوبال على الآمر الذي هو ولي الأمر، وليس على المأمور، هكذا أمرنا رسول الله ﷺ.

لكن عندما تكون المعصية التي يأمر بها ولي الأمر وبالُها عائدٌ إلى المأمور، عندئذ يجب ألا يطيعه.

مثلاً: أمره بشرب الخمر أو بارتكاب الفاحشة أو أمره باقتناص مال زيد من الناس لا يجوز طاعته في ذلك نهائياً.

يجب على العالم أن يستجيب لدعوة ولي الأمر إذا دعاه، يقول الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ))، وهناك في تراثنا الإسلامي دلائل كثيرة على هذا.

على ألا ينتهز العالم فرصة استدعاءِ ولي الأمر له وذهابه إليه لاستجرار منفعة وفائدة دنيوية، يستجيب لدعوته ويتسامى فوق الفوائد الدنيوية الشخصية التي يمكن أن ينتهزها من هذه الفرصة.

يجب على هذا العالم أن ينتهز أي فرصة يتم فيها اللقاء مع ولي الأمر لأي مناسبة ليجعل من هذا اللقاء وعاءً للنصح وللأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ولا يجوز أن يجعله فرصةً لأي أمر دنيوي.

فإذا دعي العالم للقاء ولي الأمر فعليه أن يعتبر أن هذه فرصةٌ قد لا تعود، وعليه أن ينظر ما هو التقصير الذي يلمحه في سلوك ولي الأمر هذا، وما هو المنكر الذي يمكن أن يراه، يجب على ولي الأمر أن ينصحه بالأسلوب الذي أمر الله سبحانه وتعالى به، وقد ذكر العلماء هذه الآداب ومن أبرزهم الغزالي في الإحياء، وغيره.

أن يتجنّب طرْقَ باب ولي الأمر، فإذا لم يُدعَ، ولم تكن هناك مناسبة تقتضي وجوده أمام ولي الأمر، فلا ينبغي أن يطرق بابه.

فهذه باختصار هي آداب العالم مع ولي الأمر، حتى لا يكون عالمَ سلطة، فإذا التزم بهذا النهج فيا حبذا.

كيف السبيل لإيجاد الصلة بين العالم وولي الأمر للقيام بالواجب:

الشيء الذي كلّف الله به العالم هو أن ينظر إلى المجتمع الذي هو فيه فإذا رأى منكراً فعليه أن يسعَى جاهداً لإزالته واجتثاثه، وإن رأى معروفاً مهمَلاً لدى الناس يسعى جاهداً لإحيائه.

أما ما يجري في قصور الأمراء، لا أدري ولا أعلم، فأنا لستُ مكلّفاً بأن أبذل الجهود المختلفة لأطرق باب هذا وهذا وذاك لأفتش وأنظر أليس هناك منكر ينبغي أن أحاول اجتثاثه، ولكن لو فرضنا أنني علمتُ يقيناً أن هنالك منكراً يمارَس، يمارسه ولي أمر المؤمنين وتبيّن أن هذا الذي بلغني صحيح، يجب أن أسعى جُهد استطاعتي بإرسال رسالة له إن أُتيح لي وكان ذلك يفيد.

فإن لم أجد سبيلاً إلى هذا وكان السبيل الوحيد هو طرقُ باب ولي أمر المؤمنين أو رئيس الدولة وغلب على ظني أنني إن طرقتُ بابه وطلبتُ لقاءه أستطيع أن أصل إلى ما أمر الله به، فعندئذ أحاول أن أُدعى إليه، أطلب لقاءه بالوسائل الممكنة، فإن لم يُتَح لي لا هذا ولا ذاك فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

أي بعبارة أخرى علماء المسلمين مكلّفون بإقامة الإسلام في الأماكن التي يرونها، في الأسواق التي يسيرون فيها، في الأندية التي يغشَونها، لدى الناس الذين يحتكّون بهم، ينبغي أن يحاوروهم وأن يهديَهم، لكن ما ينبغي أن يتطلّع إلى أن يذهب إلى قصر رئيس الدولة لينظر هل هو ينفّذ أو لا ينفّذ أوامر الله، لا ليس مكلّفاً، لكن إذا علم أنه يمارس عملاً محرّماً يجب عليه جاهداً أن يذهب فيدعوَه إلى الله، لم يستطع لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، أي كلٌّ في دائرته.

ألا يُغني أن يوجّه العالم نصائحه لرجال السلطة ولأولي الأمر ضمن دروسه العامة وأحياناً هذه الدروس العامة تكون واسعة الانتشار، وخاصةً في عصر وسائل الاتصالات، ألا تُغني هذه الوسائل لتوجيه النُّصح لولي الأمر عبر هذه الدروس التي يخاطب بها عامة الناس؟

هذا الأمر يحتاج لشيء من التفصيل، فهذا يختلف عن ذاك.

فعندما أجلس في مجلس الوعظ: دروسٍ في مسجد أو خطبة جمعة أو نحو ذلك، ينبغي أن يكون الموضوع الذي أطرقه حالَ هؤلاء الناس الذين أحاورهم وأخاطبه وأنصحهم، فإن كانوا تجّاراً، صنّاعاً، عمّالاً، موظفين...

ما هي المنكرات التي توجد في هذه الأماكن والمؤسسات، ينبغي أن أطرق الحديث عنها، وينبغي أن آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر.

أما إن قلتُ في نفسي أنني ألقي خطبةً يوم الجمعة، فلماذا لا أتحدث عن المنكرات التي يتورط فيها المسؤولون، أو رئيس الدولة، وربما تبلغه كلماتي.

هذا غير جائز شرعاً قط.

السبب أني لستُ الآن أمام ولي الأمر، وإنما أنا أمام أناسٍ مشاكلُهم كثيرة ومنكراتهم كثيرة، وأنا مكلَّف – وأنا أرى هؤلاء الناس المتورطين في المنكرات — أن أدعوَهم إلى الله وأحذّرَهم من هذه المنكرات...الخ.

يقول قائلٌ: ولكن رئيس الدولة يفعل كذا والدولة متورّطة في كذا.

والجوب: هو أنني إنما أبلغ رضا الله عزّ وجلّ في هذا الأمر بالطريقة التالية:

أحاول أن أصل إلى رئيس الدولة بالطريقة التي ذكرتُها سابقاً، أي أبذل ما أملك في سبيل أن أُستدعى إلي، فإذا جلسْتُ إليه أحدّثه عن هذه المنكرات بيني وبينه، وإذا كان هنالك مسؤولون آخرون في درجة أدنى من درجة رئيس الدولة ، كذلك أطرق باب هذا وهذا وذاك، ألقاهم وأحدثهم عن المنكرات التي تورطوا فيها بالأسلوب المضمَّخ بالحب والغيرة والشفقة كما قلنا، فإذا خرجتُ من عندهم لا أتحدث بذلك قط.

عندما أكون عندهم أحدثهم وآمرهم وأنهاهم وجهاً لوجه، فإذا خرجت من عندهم لا يجوز لي أن أجلس فأتحدّث في المناسبات عما قلت في لقائي مع السيد الرئيس أو مع الملك أو مع فلان من أولياء الأمور، أو أتحدّث عما فعلتُه في خطبة الجمعة، هذا مما حذّر منه علماء الشريعة الإسلامية

تحذيراً كبيراً، وهو يدخل في الغيبة، وإذا كنتُ مخلصاً في عملي لله عز وجل يقودني الإخلاص للانضباط بهذه الطريقة.

كان الفضيل بن عياض من كبار الصالحين والأولياء الربانيين، وكان هارون الرشيد يحبّه ويستدعيه إليه، فكان الفضيل لا يجلس إليه إلا ناصحاً، واعظاً، آمراً، ناهياً.

فإذا خرج من عنده فَطَمَ فمَه عن الحديث عنه، وإذا وُجد من يحاول أن ينتقص من هارون الرشيد ويُلحِقَ به مذمّة يمنعه من ذلك، وكذلك كان عبد الله بن المبارك.

هذه الناحية مُهمَلة عندنا اليوم.

هل هذا من أمانة المجالس أم أنه واجب ديني أن يحفظ ما بينه وبين وليّ الأمر من نُصح؟

كِلاهما، هذا من أمانة المجالس والحديث عنه يدخل في الغيبة المحرّمة.

دعكَ من ولي الأمر، إذا كنتُ أعلم أن جاراً لي يمارسُ محرّماً من المحرّمات، مثلاً يشرب خمراً، يرتكب فاحشةً، يأكل رباً، ما الذي يجب عليّ؟

أطرق بابه، أو أرسل إليه أنني أريد زيارته، فأذهب وأجلس إليه مجلسَ ودّ، وأقول له: بلَغَني عنك كذا وكذا، هل هو صحيح؟

إذا كان صحيحاً أقول له: يا أخي أنت مسلم، أنت مؤمن ولك عليّ حقّ، يوم القيامة ستعاتبني أنني رأيتك على المنكر فلم أُنَبِّهْكَ، أسأل الله أن يعافيك من هذا الأمر.

ثم أخرج ولا أتحدّث بشيء عن هذا المجلس، سواءٌ أصغى هذا الشخص أم لم يصغِ، أولاً لِما تقتضيه أمانة المجلس، ثانياً كي لا أقع في الغِيبة، لأن الغيبة هي ذِكْرُكَ أخاك بما يكره في غيبته، فإن قال أحدهم: (أنا لا اكذب هو فعلاً هكذا).

يقول ﷺ: ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهَتَّه))، ففي كلتا الحالتين لا يجوز.

فإذا كان ذلك غير جائز مع جاري، فمع وليّ أمر المؤمنين كذلك غير جائز.

كيف يمكن أن يوصِل العالمُ نصائحَه لوليِّ الأمر فقد لا يُدعى إليه؟

إذا حاولتُ أن أوصل كلمة الحق لولي الأمر بالوسائل المختلفة، فلستُ مكلّفاً بأكثر من ذلك.

أدعو له بظهر الغيب أن يحرره الله عزّ وجلّ من هذه المعصية، وهذا أدبٌ من الآداب التي نسيتُ أن أذكرها عندما تكلمت عن علاقة العالم بالحاكم، فمن أهم آدابها الدعاء له.

وليس المراد بالدعاء أن أدعو له بطول العمر، بالعافية التامة، بمزيد من الغِنى، بمزيد من الراحة، إنما ينبغي أن أدعو له بالتوفيق لما يرضي الله عز وجل، فأسأل الله عزّ وجلّ أن يزيد قلبه إشراقاً وأن يزيده إيماناً بالله وأن يزيده انضباطاً بحُرُمات الله، وان يسموَ به عن المنكرات.

يقول الفضيل بن عياض: (لو أن لي دعوةً مستجابةً لصَيَّرتها للإمام)، قيل له: (وكيف ذلك يا أبا عليّ)، قال: (متى صَيَّرْتُها في نفسي لم تَـجْزِني، ومتى صَيَّرْتُها في الإمام فإصلاحُ الإمام إصلاحُ العباد والبلاد).

هنا أريد أن أُظهر تعجّبي الشديد وهو عجبٌ لا ينتهي من إخوةٍ يظلّون يرسلون إليّ الاستنكار تلو الاستنكار من الدعاء لوليّ أمر المؤمنين بحجّةِ أنهم لا يحبّونه أو متضايقون منه!!

يا أخي إنما يأسى على الحب النساء، ما علاقة الحب بمصلحة الدعوة؟

هذا الإنسان فرضه الله علينا شئنا أم أبَينا هو وليّ أمرنا هو يقود مركبة المجتمع، إذن ينبغي أن أسأل الله عزّ وجلّ أن يوفّقه حتى لا نهلك وحتى تكون قيادته سليمة، أي عاقل يقول هذا الكلام.

أنت تركب سفينةً فيها مئاتُ الأشخاص ورُبّان السفينة أمامك يقود، والبحر مائج، والأمواج تتقاذف السفينة يميناً وشمالاً، هل من عاقلٍ لا يدعو لهذا الربّان ويقول يا رب احمِ هذا الربّان ألا يخطئ يا رب!!

ولي أمر المؤمنين هو ربان سفينة المجتمع إن أحبَبْتَه أم لم تحبَّه.

ومن ثَمّ كان الإمام مالك رضي الله عنه شديد الحرص على الدعاء لولي الأمر، الفضيل بن عياض كذلك، وكان هذا شأن التابعين كلهم.

أعود فأقول: إذا لم يُتَح لي أن أصل إلى رئيس الدولة من أجل أن أذكّره بالله آمراً بمعروف ناهياً عن منكر، فأنا لست مكلفاً بنصيحته ولكنني مكلّف بالدعاء له.

ألا يجب على العالِم أن يسعى لنصح ولي الأمر ؟

إذا علِم العالِم أن وليّ الأمر متورطٌ في معصيةٍ ما أو يمارس أمراً خاطئاً عن جهلٍ ويحتاج لمن يذكّره، على العالم أن يسعى للقائه أو يرسل إليه رسالة تذكره بالله تعالى.

كان الإمام النّووي يعيش في عهد الظاهر بيبرس الذي حمّل الناس مزيداً من الضرائب للاستعانة بها على حرب التتار، فأرسل إليه الإمام النووي رسالةً مضمّخةً بالحب فيها أمرٌ ونهيٌ، أي جمع بين الطريقتين وأوضح له أن هذا غير جائز لوجود كمالياتٍ كثيرة في الدولة، فالخدَم والحشم ممنطقون بمناطق الذهب وغير ذلك.

هذه الزيادات والفضول إذا وُضعت في خزانة الدولة وفي خدمة الجيش ثم لم تَفِ بالمطلوب عندئذٍ له الحق بزيادة الضرائب على الناس، وهذه الرسالة موجودة في كتاب للسَّخاوي في ترجمة الإمام النووي، وقد قبِل الظاهر بيبرس هذه النصيحة وعمل بها.

أئمة المسلمين فيما مضى كان بينهم وبين علماء المسلمين تناسب وتناغم، فكما أن العلماء كانوا فيما مضى على مستوىً من الإخلاص لله ومن السلوك الرباني، كان أئمة المسلمين كذلك.

وأنا لا أُحمّل المسؤولين في هذا العصر مسؤوليةَ أن الذين كانوا من قبل كانوا أفضل، فلو أن عالماً كالإمام الغزالي أو محيي الدين النووي كان موجوداً في هذا العصر يخاطب أولياء أمور المسلمين لطأطؤوا له الرأس ودانوا له، لأنهم يرون فيه مظهر الخضوع لسلطان الربوبية والإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ، ويرون فيه الإنسان الذي يتمتع بما يسمّيه العلماء (وحدة الشهود)، فلا يشاهد الواحد منهم إلا مولاه وخالقَه، صحيحٌ أنه في مجلس الحاكم لكنه لا يرى إلا الله.

فوجودُ هؤلاء العلماء يسري بالعدوى إلى هؤلاء الأئمة، وتقصير العلماء هو الذي سبّب تقصير الأئمة، الأمر متناغم.

احترام وليّ الأمر واجبٌ من حيث أسلوب المخاطبة وهو مطلوبٌ عُرْفاً أيضاً فما هي حدود ذلك في ميزان الشريعة الإسلامية؟

رُوي عن عَائِشَةُ رضي الله تعالى عنها أَنَّهَا قَالَتْ: "أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ " (رواه مسلم)، أي أن نكلّم كل واحدٍ حسب المرتبة التي هو فيها.

فرئيس الجمهورية تبوّأ منزلةً معروفة، إذن ينبغي أن أخاطبه بما يتفق مع هذه المنزلة، والقانون في هذه الحالة هو العُرف، وهذا ما قاله النبي ﷺ، فمثلاً أقول له (سيادة الرئيس)، أو أرسل له رسالةً فأقول له: (السيد رئيس الجمهورية)، وإذا كان ملكاً أخاطبه أيضاً بما يُخاطَب به الملوك عُرفاً.

والنبي ﷺ عندما بدأ يرسل الرسائل إلى ملوك العالم كان يسأل عن لقب كل واحدٍ منهم لكي تكون الرسالة مُتوَّجةً به، فأرسل إلى هرقل الروم مخاطباً إياه بـ (عظيم الروم)، وهذا يعني أنه وصف هرقل بالعظَمة وهذا ليس بالأمر القليل، مما دلّ على أن العالِم المسلم إذا خاطب وليّ أمر المؤمنين أن لا ينسى لقبَه.

وهناك من يقول أن العالِم يجب أن يخاطبَ الحاكم باسمه (يا فلان)، ولكن هذا غير صحيح فالنبي ﷺ لم يفعل هذا.

أُقيم في الثمانينات حفلٌ بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري، في وقتٍ كانت فيه مشكلةٌ بين الإخوان المسلمين والدولة، وطُلِب منّي أن أُلقي فيه كلمة الجامعة بحضور الرئيس حافظ الأسد، فقلت له مُخاطباً: (سيادة الرئيس قائدَ هذه الأمة).

في اليوم التالي أُرسِل إلي انتقاد شديدُ اللهجة لأنني خاطبتُه بـ (قائد الأمة) أي قائد الأمة في سورية، فقلت للشخص الذي كان وسيطاً، وقد بلّغَني أكثر من انتقاد، قلت له: (اسألْهم: ما هو عمله؟ إذا كان له وظيفةٌ أخرى نصِفُه بها، وظيفتُه أنه قائد شئنا أم أبينا، فعقلاً، منطقاً، ديناً، لا يخاطَب الإنسان إلا بالوظيفة التي أقامه الله فيها)، ولن نجد أبلغ من هذا الكلام: أُمرتُ أن أنزل الناسَ منازلهم.

طاعة الأمة لولي الأمر واجبة، وهي طاعةٌ بالحق: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ))، وطاعة وليِّ الأمر للعلماء الناصحين أيضاً واجبة فكيف نوفق بين هذين الواجبَين المُتواجهَين.

يعني إذا تصادم أمرُ الحاكم مع أمر العالِم فهل يجب على العالم أن يطوي توجيهه ليطيع ولي الأمر، أم على ولي الأمر أن يطوي أمره هذا ليطيع العالم؟

الواقع أن الحل يكمن في ميزان الشريعة الإسلامية التي تقول: (لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق)، فننظر إلى هذا الأمر الذي اختلف فيه رئيس الدولة مع العالِم ونعود إلى أحكام الشريعة الإسلامية، فإذا وجدنا أن هذا الأمر مما يحرّمه الله عزّ وجلّ ويحذّر منه، وأن العالِم إنما يبلّغ وليَّ الأمر و يبلّغ الناسَ شرعَ الله عز وجلّ، فعلى وليّ الأمر أن يكون هو المطيع في هذه الحالة، والطاعة في الحق، أما إذا كانت المسألة اجتهادية لا نصَّ فيها من القرآن أو السّنّة، وكان ولي الأمر من ذوي البصيرة العلمية وله الحق أن يجتهد فالأمر عندئذ داخلٌ في أحكام الإمامة أو ما يسمى بالسياسة الشرعية والقرار فيه يعود لولي الأمر، ويجب على العالم أن يطيع وليَّ الأمر فيه.

فالأحكام التبليغيّة التي نص عليها الشارع نرجع فيها لكلام العالم المخلص البصير في تمسكه بهَدْي الله عزّ وجلّ.

إذن يتضح من هذا الكلام الفارقُ بين العالم الذي يُسمَّى اليوم عالمَ سلطة، والعالِم الذي يَبَرُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ويلتزم بأوامره سبحانه وتعالى ولا يستجيب إلا لحُكم الله، فالفرق أصبح واضحاً.

كثيراً ما يغري وليُّ الأمر علماءَ الدين وخاصةً منهم ذوي الشعبية، هؤلاء كثيراً ما يتعرضون للإغراء بوسائل متنوعة ليتّبعوا وليَّ الأمر وينقادوا لسياسته.

وكثيراً ما يطمع علماء الدين بالمقابل أن ينالوا من ولي الأمر حظوةً دنيوية، فما هو موقف الشريعة الإسلامية من هذين الأمرين، محاولة الإغراء من جهة ومحاولة التكسّب من جهة أخرى؟

المشكلة واضحةٌ وقائمة، ولكنني أعتقد أن الوسيلة التربوية هي التي تحلّ هذه المشكلة.

أنا الآن من الذين يُنعَتون بأنهم من أهل العلم، وقد أتعرض من قِبَل كثيرٍ من المسؤولين لمغرياتٍ كثيرة متنوعة في سبيل أن أكون مجنّداً لمصلحتهم ولكي يكون لساني وسلوكي وسيلةً من وسائل الدعاية والانتصار لهم، في هذه الحالة المطلوب مني أن أتمتع بضوابط وكوابح تحجبني عن الاستجابة لهذا الذي أُدعى إليه من المغريات المادية والمراكز وما إلى ذلك.

كذلك ولي الأمر عندما يحاول أن يجنّد فئات من هنا وهناك لمصلحته ينبغي أن يكون متمتعاً بذاتيّةٍ إيمانية بالله عزّ وجلّ تمنعه وتردعه من الدخول في هذا المسلك.

ولي الأمر يحتاج إلى العلماء في كل وقت وهذا ليس فيه إشكال، ولي الأمر أياً كان منذ الخلافة الراشدة ومَن بعدها يحتاج إلى العلماء، لينصحوه، ليذكّروه، ليستفتيَهم فيُفتوه، ليعظوه فينتعش بموعظتهم.

فإذا كان ولي الأمر يغري العلماء من أجل هذا فيا حبّذا، وأقصد هنا بالإغراء أن يدعوَهم إليه بنوع من اللطف، فإذا لم يستجيبوا يهدّدهم، وربما يدعوهم إلى طعام، إلى شراب، إلى ضيافة، مجلس الأمير دائماً مجلس مُغرٍ، فإذا كان ولي الأمر يستدعي العلماء ويحتاج إليهم ويخطب ودَّهم من أجل أن يتقرّب بهم إلى الله عز وجل كما كان شأن أولئك فيا حبّذا.

مثلاً: كان هارون الرشيد يستدعي ثلّةً من العلماء إليه كل فترة، من أجل أن ينصحوه.

هارون الرشد ليس معصوماً أبداً لكنه في نفس الوقت يحبُّ أن تكون صلته بالله عامرة، ولا يتأتّى له ذلك إلا بأن يصغي السمْعَ إلى هؤلاء العلماء.

روى سفيان بن عيينة، وكان من أكثر الملازمين للفضيل بن عياض، أنه دخل مع جَمع من العلماء على الرشيد استجابةً لدعوة وُجِّهَت إليهم.

قال: (ودخل الفضيل بعدنا جميعاً، مقنّعاً رأسَه بردائه، فلما اطمأنّ به المجلس قال لي: يا سفيان، أيُّـهم أمير المؤمنين؟.

فقلت: هذا وأومأتُ إليه، فنظر الفضيل إليه قائلاً: يا حَسَن الوجه، أنت الذي أمرُ هذه الأمة والعباد بيدك وفي عنقك؟!... لقد تقلّدتَ أمراً عظيماً!...، فاستعبر الرشيد باكياً).

طبعاً كانت هذه الجلسة بدعوة من هارون الرشيد فهو الذي استدعاهم، قل أغراهم، استدعاهم، أياً كان، المجلسُ كان مقرِّباً إلى الله ولم يكن مجلساً استفاد فيه هارون الرشيد لدُنياه، ولا استفادوا هم لأمر دنيوي لهم، نهائياً.

فالأمر إذن يتوقف على ذلك، عندما يُدعى العالم إلى أن يكون شديدَ الصّلة بالمسؤولين، من أجل أن يسير في رَكْبهم من أجل أن يستجيب لدعوتهم، ينبغي أن يكون ذا مناعةٍ.

المناعة الطبية ليس لها قيمة أمام المناعة الدينية والتربوية التي تجعله يتذكر الله عزّ وجلّ.

ذهبتُ... مالذي سأجده أمامي؟ ما الشيء الذي سأُجَنَّد له.

اليوم صار معروفاً أنني سأجنّد لأمور لا ترضي الله عزّ وجلّ، إذن ينبغي ألا أستجيب بشكلٍ من الأشكال.

وإذا كان ولي الأمر يفعل ذلك (يحاول أن يجنّد العالم لما يريد)، الحل لا يكون من طرفين، فوليُّ الأمر لا أستطيع إقناعه، لكن أقنع العالم، أقول له إذا وجدتَ أنك ستُدعى إلى ارتكاب معصية فينبغي أن تبذل كلّ ما تملك من أجل ألا تستجيب، إذا قال إذن سيعاقبني، نقول: إذا وجدتَ أنك معرّض للعقاب تستجيب لدعوته وتذهب إليه ولكن لا تطاوعه فيما قد حرّم الله سبحانه وتعالى، باللطف وبالكلمة الحسنة.

وبالمناسبة أريد أن أصحح مفهوماً عند كثير من الشباب اليوم عندما يسمعون حديث رسول الله ﷺ: "إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" يفهمون أن كلمة الحق ينبغي أن تكون توبيخاً، وأن تكون بنوع من الشِّدَّة وإلا لا تكون جهاداً.

أبداً....

النبي ﷺ لم يقل هذا الكلام، وإنما قال: (كلمة حق عند سلطان جائر)، وسواءٌ كان جائراً أو غير جائر، المهم أن نقول كلمة الحق عندما نجد الفرصة سانحةً أمام المسؤول أياً كان وضعه جائراً أو غير جائر.

لكن لاحظوا أن النبي ﷺ يقول: كلمة حق (عند)، ولم يقل (على) سلطان جائر، فلا نقولها وراء ظهره، أو نغتابه، هذا لا يجوز أبداً، تريد أن تنصحه وتظهِر بطولتَك لا تظهِرْها أمام المخلوقين، بل أظهِرْها أمام رب العالمين.

متى يكون لنصائح علماء الدين قَبولٌ في نفوس أولي الأمر، وما السبيل إلى ذلك؟

السبيل إلى ذلك أن يكون هذا العالم الذي يريد أن يجلس إلى ولي الأمر ويكلّمه ينبغي أن يكون قد طهّر قلبه قبل ذلك من الشوائب وينبغي أن يكون قد هيّأ نفسه لهذا اللقاء بكثيرٍ من الالتجاء وبكثيرٍ من الدعاء، وينبغي إذا عرف نفسه أنه سيُدعى غداً إلى لقاء رئيس الدولة، ينبغي أن يقوم من الليل ويصلّيَ ما أُتيح له، ويسألَ الباري عزّ وجلّ أن يطهر قلبه من الشوائب حتى لا يرى ببصيرته إلا الله، ولا يبتغيَ بقصده إلا رضا الله عزّ وجلّ.

يلتجئ إلى الله والباري عزّ وجلّ يستجيب، عندئذ إذا ذهب وقد التجأ إلى الله وقرأ ما تيسر من القرآن وصلى قيام الليل وذهب إليه وبدأ يكلّمه، ربي عزّ وجلّ يجعلُ لكلامه قَبولاً في قلب هذا الإنسان، وهذا شيء مجرّب ولا نرتاب في ذلك أبداً.

ولكن عندما يكون العالم ذاهباً وقد وضع في ذهنه أن ولي الأمر سيكرمني بوظيفة، بعمل، ...إلخ، ووضع في ذهنه أنه سيطلب منه بطريقة من الطرق... يشمُّ منه ذلك.

فللإنسان فراسة، وسيعلم منه ذلك، يسمع كلامه يرحّب به ولكنه لا يتأثر.

سؤالٌ صريح فضيلة الشيخ: من المعلوم أنه كان لكم صلةٌ خاصّة بالرئيس الراحل حافظ الأسد، بنظرك وحسب ما بيَّنتَه الآن من صفات العلماء الأبرار وعلماء السلطة، في أيِّ هذين الصِّنفَين من العلماء تضع نفسك. . . اسمح لي بهذا السؤال لأنه سؤال يدور في خَلَد الكثيرين.

أصف لك وضعي، وأنت والمشاهدون تحكمون أنا لا احكم أنني من أي الصِّنفين، لكن أحدِّثُك كيف كانت علاقتي بالرئيس حافظ الأسد، بوسعك عندئذ أن تعلم أنني من أيِّ الصِّنفين:

أنا لم أطلب في حياتي مرةً واحدة لقاء الرئيس حافظ السد نهائياً.

البوابة التي أدخلتني في علاقة مع الرئيس حافظ الأسد هي الكلمة التي ألقيتُها – كلمة جامعة دمشق – في الحفل الذي أقامته وزارة الأوقاف آنذاك بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري، ألقيتُ كلمةً آنذاك على خلاف ما يلقيه المشايخ والعلماء ليس فيها مثقالُ ذرّةٍ من مَدْح قلت له:

(السيدَ الرئيس قائدَ هذه الأمة: كان بوسعي أن أصوغ لكم أبلغ ثناءٍ يمكن أن يتخيَّره مادح، لا يكلّفني ذلك إلا فِكراً يرصُف وقلماً يكتب، ولكنّي أعلم – والله – أنّ الرجال الكبار يطمحون دوماً إلى نوعٍ آخر من الثناء، أسمى من هذا وأجلّ، إنهم يطمحون إلى تذكرةٍ ينبض بها قلبٌ شفوقٌ مخلصٌ أمينٌ، أكثر من أن يُطرِبهم مديحٌ يردّده لسانٌ عليم، وما كان جيلُ خلفاء هذه الأمة إلا من هؤلاء الرجال...).

ثم بدأتُ أعتِب على الدولة وعلى جماعة الإخوان، انتقدتُ فيها انتقاداتٍ معينة على الدولة و انتقاداتٍ على الإخوان وقد راهن الناس، وخصوصاً رجال الأمن أن هذه الكلمة ستجرّ لي المتاعب، ولكن على العكس فقد كانت هذه الكلمة هي سبب استقدام الرئيس حافظ السد لي.

في اللقاءات التي تمّت كان دائماً هو الذي يدعوني إليه، وقد استمر اللقاء الأول أربع ساعات، ولكن فيما بعد استغرقت إحدى الجلسات سبع ساعات ونيّف.

موضوع الجلسات:

لم أحدِّثه في يوم من الأيام عن شيء يعود إلى مصلحتي أبداً، رغم أنه كان دوماً يشجعني لكي أطلب، ولكنني ما طلبت شيئاً أبداً.

كان الحديث في كثيرٍ من الأحيان عن بعض الأمور التي تمَّت، مثل حرب تشرين، في الحقيقة (أنور السادات) رحمه الله لعب علينا لعبة كبيرة، فكان يحدثني عن بعض الأمور.

وكان يستشيرني في بعض القضايا الاجتماعية، وكان كثيرَ الحديث عن الأمور الدّينية لا سيّما القرآن.

وقد أخبرني أن هواياته في الدنيا ثلاثٌ، الرياضة والتاريخ، والإكثار من قراءة القرآن.

كان يدخّن ثم إن الله اعتقه من الدخان.

كنت كلّما دخلتُ عليه أطلب منه أمراً من أمور الدين، مثلاً وزارة الإعلام كانت قد ألغَتْ قائمةً من الكتب الدينية فأصبحت ممنوعة بدون موجب، فذكرتُ له ذلك وأوضحتُ له أن هذه الكتب ليس فيها ما هو سياسي، فسرعان ما ألغى الإلغاء.

كنت أحدّثه عن أمور تتعلق بالمدارس تتعلق بالحجاب، تتعلق بالصلاة في الجيش، ...هذا كان حديثي له.

في يومٍ من الأيام اتّصل بي (أبو سليم) الأمين الأول للقصر، قال لي:(الرئيس يسلّم عليك ويقول لك اطلُب ما شئتَ مهما كبُر)، ونبهني أبو سليم أنني إذا لم أطلب سيكون في ذلك إساءة، قلتُ له: (بلّغ السيد الرئيس اعتزازي وشكري على هذه المودّة وهذه العاطفة، ولكنْ طَمئِنْه أنني غنيّ وأنني لا أحتاج إلا إلى شيئَيْن: أن يَدخل الذين هم في الخارج، وأن يَخرج الذين هم في الداخل).

والذي كان بعد ذلك بأسابيع أنْ أُطلِق سراحُ المئات من مساجين الإخوان، وفُتِح الباب لكثير من الذين خرجوا خارج البلاد ليعودوا إليها.

فهذه كانت صلتي به، وهو الذي كان يدعوني إليه، فلم أكن أنا الذي أذهب إليه لأعرض عليه مسألةً واطلب منه أمراً نهائياً، ولعلي لو طلبت لأجابني ثم إن العلاقة به كانت تنتهي.

فبهذه الحالة تستطيع أن تصنّفني هنا أو هناك.

أقول لك شيئاً، لا أعرف كيف كان الرئيس حافظ الأسد قبل أن أراه لكنه أصبح فيما بعد منضبطاً بأوامر الله محافظاً على وِرد (وِرد الإمام النووي)، كان يحافظ على قراءته ويضعه في جيبه، وكان كما يقول لي كثيرَ الثقة بالله عز وجلّ وكثير الاعتماد عليه.

سمعتُ له كلمةً ألقاها في مؤتمر المحامين العرب في سورية قبل وفاته بحوالي عشر سنوات أبكى فيها بعض الجالسين، قال فيها:

(لم أَصِم نفسي بالتوقيع على معاهدة استسلامٍ مع إسرائيل، لن أسمح لِذاتي بأن تجُرَّني إلى شيء لن يجلب لي سوى اللّعَنات، على مَرِّ التاريخ، لقد شبعتُ حُكْماً، وأمضيتُ عمري وأنا أُناضل وهدفي وحدة العرب وسبيلي هو قضية العرب الأولى، وظلّت فلسطين بالنسبة إليَّ رمزاً خالداً لا يُمسّ، ولم تمرَّ عليّ لحظة واحدة لم أؤمن خلالها أنني على حقّ، وأن ميزان العدالة سينتصر في النهاية لصالحِنا ولصالحِ السلام.

لقد رأيتُ في حياتي جنازاتٍ كثيرة لِأموات، وشاهدتُ على شاشة التلفزيون كثيراً منها، والإنسان في نهاية المطاف سيأتيه قدره المحتوم، وكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ولذا فإني أريد أن أموت وأنا راضٍ عن نفسي والناسُ راضون عني، وقبل ذلك، والأهمَّ من ذلك أن أنال رضا الله ورحمتَه، هكذا أنا وهكذا سأكون بإذن الله).

هذا كان وضع السيد الرئيس حافظ الأسد قبل وفاته، وطبعاً هذا لا يعني أنه كان معصوماً ولا أحد منا معصوم، (كلُّ ابنِ آدمَ خطّاء)، إلا أن الفرق كبير بين عاصٍ معصيتُه نابعةٌ من ضعفه وتغلّبِ نفسِه عليه، وعاصٍ بسبب استكباره وعُتُوِّه، فالاستكبار هو الذي يحجب صاحبه عن الله عز وجلّ، أما المعصية الآتية من ضَعف فلا تحجب الإنسان عن الله.